وقفات مع بعض آيات سورة البقرة

صالح الهطالي

١٣ من محرم لعام ١٤٢٩هـ / ٢١ من يناير لعام ٢٠٠٨م

قمتُ بتدوين هذه الخواطر عندما كنت أقر كتاب "جواهر التفسير – أنوار من بيان التنزيل" لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي– المفتي العام للسلطنة حفظه الله ومدَّ في عمره–.

١) في قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ** ﴾ (البقرة: ١٧)، أيهما أخص: النور أم الضياء؟ ما يذكره المفسرون هو أن النور أعم من الضياء، على اعتبار أن ذهابه يستلزم ذهاب الضياء، ولكن إذا اعتبرنا أن الضياء يشمل الإنارة عالية الطاقة والإنارة منخفضة الطاقة (والتي هي النور) فيكون الضياء أعم. كذلك، فإن الضياء له طاقة محسوسة عالية، والإنارة لها طاقة منخفضة لا تكاد تُحسّ، وهي أيضًا مشمولة في الطاقة العالية الموجودة في الضوء.

٢) في قوله تعالى: ﴿ **ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ** ﴾، قد تكون فيها إشارة إلى إعجاز علمي؛ وهو أن ذهاب النور من الضياء يجعل الضياء مظلمًا، وهذا يعني أن الضياء يتكون من عناصر: عنصر الإنارة، بالإضافة إلى عناصر أخرى، وإذا جُرِّد من عنصر الإنارة، بقيت العناصر الأخرى، وقوله تعالى: ﴿ **لَا يُبْصِرُونَ** ﴾ هو شاهدٌ على ذلك. وقوله: ﴿ **فِي ظُلُمَاتٍ** ﴾ يدلُّ على أن العنصر المغاير للإنارة يتحوَّل إلى شيءٍ ضارٍّ قد يسبب العمى، وأنه أيضًا يتكون من خصائص مختلفة، كل واحدةٍ منها كافية لتوليد "ظلمة" من مجموع "ظلمات".

٣) في ذكر الآية: ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾ (البقرة: ١٨) بعد قوله ﴿ **لَا يُبْصِرُونَ** ﴾ في الآية التي قبلها قد تكون إشارة إلى إعجاز علمي آخر، وهو واحد من أمرين:

أ) إما أنه يعني أن ذهاب الإبصار عند الإنسان يكون سببًا لإصابة الإنسان بالصمم والبُكم والعمى التي لا علاج لها بدليل قوله: ﴿ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

ب) وإما أن انتزاع عنصر الإنارة من الضوء يكون سببًا في إصابة الإنسان بالصمم والبُكم والعمى، وجميعها إصابات مزمنة لا علاج لها.

٤) أرى أن يُفسَّر "الصَّيِّب" في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٩) بالسحاب لا بالمطر، لأن ذكر الاشتمال على الظلمات والرعد والبرق أنسب للسحاب من المطر؛ فقد يكون رعدٌ وبرقٌ ولا يهطل مطر. وإذا أخذنا بهذا الرأي فإن الآية إشارة إلى إعجاز علمي وهو أن السحاب الكثيف الذي يكون مثل الجبال هو الذي يكون فيه رعدٌ وبرق، والكثافة مستوحاة من ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾، والعُلُوُّ والارتفاع من ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾. وهذه الإشارة مطابقة للآية ٤٣ من سورة النور، والتي ذكرت أن مثل هذا النوع من السحاب هو الذي يتكون فيه البَرَد، حيث يقول فيها سبحانه: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾.

٥) قوله تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ قد يحمل إشارة إلى إعجاز علمي آخر وهو أن "الصواعق" وهي موجات صوتية عالية التردد قد تؤدي إلى الموت إذا تعرَّض لها الإنسان، ولا أدري هل دخول هذه الموجات الصوتية إلى الأذن هو الذي يسبب الهلاك بدليل وضع الأصبع في الأذن لمنع الموجات الصوتية من دخولها، أم ملامسة الموجات الصوتية لأيِّ موضع في الجسد هو الذي فيه الهلاك، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ ﴾.

٦) لماذا نُسِب خروج الثمرات إلى الماء في قوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢)؟

أ) قد يكون فيه إشارة علمية على أن الإنبات لا يكون إلا من الماء النازل من السماء، وإذا كانت الشواهد تقول بعكس هذا، فقد يعني هذا أن الماء الذي له خاصية الإنبات له مدة معينة إذا تجاوزها لا يكون صالحًا للإنبات.

ب) قد يكون فيه إشارة علمية إلى أن الإنبات لا يكون إلا مع وجود الماء؛ بمعنى لا يحدث الإنبات إذا تم وضع البذرة في أيِّ وسطٍ آخر غير الماء.

٧) قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه ما يلي:

أ) إشارة إلى الأنداد التي ادعاها الناس على أنها الآلهة الموكلة بالأمور المذكورة في الآية من تمهيد الأرض ورفع السماء وإنزال المطر وإخراج الثمار.

ب) إشارة إلى أن أيَّ تفسير علمي لنَسْبِ الحوادث المذكورة في الآية إلى الظواهر الطبيعية المختلفة هو بمثابة جعل كل واحدٍ من تلك التفاسير نِدًّا لله.

ج) قوله: ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه دعوة إلى عدم قبول أيِّ ادعاءٍ أو تفسيرٍ علمي قبل تمحيصه.

د) قوله: ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه إشارة إلى أنَّ مَن حوى العلم الصحيح لن يدَّعي أن لله أندادًا؛ وفي هذا تبكيت لمن لا يؤمنون بوحدانية الله وإن كانوا يحملون أعلى الشهادات والأوسمة العلمية، فإنهم –بحسب مفهوم المخالفة– لا يعلمون، فكأنهم غارقون في الجهل.

٨) قد يشير قوله تعالى ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ في الآية: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣) إلى الذين يشهدون مجالسهم من البلغاء والحُكماء الذين يوهمونهم بأن القرآن لا شيء وأن بمقدورهم أن يأتوا بمثله. وربما تشير الآية إلى دعواهم الباطلة عندما يقولون بأن هناك من الناس مَن يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لدحض تلك الدعاوى.

٩) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٦) يمكن أن يكون استنكار ضرب الأمثال في القرآن صادرًا من اليهود، الذين كانوا يشكلون النسبة الأكبر من المنافقين لأنهم لم يتعوَّدوا ذلك في كتبهم المنزلة على أنبيائهم، ولذلك استنكروه هنا. يذكر سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي– حفظه الله– في جواهر التفسير (ج ٢، ص ٤٨٦) أن ضرب الأمثال واردٌ في

الكتب السماوية الأخرى. يقول سماحته: "ولم يكن ضرب الأمثال خاصًّا بالقرآن من بين الكتب السماوية، فالتوراة والإنجيل والزبور وردت فيها أمثال مختلفة منها بأشياء مهينة كالنخالة والقملة، كما بيّنه الواقفون عليها".

١٠) قوله تعالى: ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ في الآية: ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧) يمكن تفسيره بما يلي:

أ) الإسلام هو ركب الهداية للبشرية، بدأه آدم- عليه السلام- وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها. ولذا، فإن وقوف المشركين واليهود والمنافقين في وجه الإسلام يعتبر بمثابة عرقلة لهذا الموكب الرباني من أن يواصل طريقه.

ب) دين الله وهدايته لخلقه المتمثلة في الإسلام هو بمثابة الحبل الممدود الذي ثُبِّت أحد طرفيه بإنزال آدم- عليه السلام- إلى الأرض، والطرف الآخر هو باب الجنة، وكل مَن يريد دخول الجنة فلا عليه إلا أن يتمسّك بهذا الحبل ويتابع المسير وهو متعلِّقٌ به إلى أن يُفضي به إلى الجنة. وما يريده هؤلاء هو بتر هذا الحبل لئلا يستمر ركب الهداية في طريقه، فيَضِلَّ الناس كما ضلوا هم.

١١) قد يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ هو محاولة الكفار من قَطْع صلتهم بغيرهم من الكائنات، وذلك من خلال احتقارها المتمثل في عدم الرضى بضرب الأمثال بها، وهذا يعني أنهم يريدون أن يفسدوا في الأرض لأن فك ارتباطهم بتلك المخلوقات يعني أنها معرضة للإهلاك والإضرار من قِبَلِهم، وهو ما يُقْصَد بالإفساد في الأرض، والله- سبحانه- يخبرهم بأن فعلهم ذاك لن يعود عليهم إلا بالوبال والخسار، نظرًا للدور الذي تقوم به تلك الكائنات في استمرارية الحياة وصلاحيتها.

١٢) مَن هم الملائكة المعنِيُّون بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ في الآية: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠)، وأيضًا في قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ في الآية: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤)؟ هل هم جميع الملائكة أم فئة مخصوصة منهم؟

وإذا كانوا جميعهم، فهل وقع الخطاب لهم والمحاورة معهم في الحال أم على فترات مختلفة؟ الجواب في جواهر التفسير، ج ٣، ص ٤٠.

١٣) هل خَلْقُ آدم– عليه السلام– كان سابقًا للمحاورة التي دارت بين الله– سبحانه– وملائكته أم لاحقًا؟

أ) إنْ قيل إنه سابقٌ فلا يُشكِّل اعتراض الملائكة بقولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ مخالفة لأوامر الله، لأنهم لم يعرفوا أن آدم –عليه السلام– هو المعني بالخلافة.

ب) وإن كان لاحقًا فهذا يعني أنه تم بعد المحاورة الأولى، وقبل أن يُعَلِّم– سبحانه– آدم الأسماء كلها.

١٤) يمكن أن تكون عبارة ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ إشارة إلى وجود جنس الجن المفسدين في الأرض قبل خلق آدم– عليه السلام–، وذلك يدعم قول الملائكة من قَبْل: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾.

١٥) في الآية ٦٠ من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ سردٌ لنعم عظيمة، منها:

أ) ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ يدلُّ على لُطفِ الله بهم من خلال الرحمة التي زرعها في عبده موسى، فجعلته يستسقي لهم، إذ إن الله قادرٌ أن يصرف موسى عن الاستسقاء لهم.

ب) قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ﴾ يدلُّ على الاستجابة الفورية، مما يدلُّ على المنزلة العظيمة التي كان موسى– عليه السلام– يحظى بها عند ربه، وهي شرفٌ عظيمٌ لهم. كذلك، فإن الاستجابة الفورية تدلُّ على رحمة الله بهم وبحالهم، فلم يؤاخذهم بجرائرهم السابقة.

ج) قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ فيه أمرٌ بشيءٍ غير مألوف عند الناس وهو ضرب الحجر بعصى ليخرج منه الماء، وهذه معجزة أكرم الله بها عبده موسى– عليه

السلام- وهي أيضًا تنبئ عن مكانة موسى- عليه السلام- وفضلهم هم لكونهم من قومه.

د) قوله تعالى: ﴿ فَانْفَجَرَتْ ﴾ تدلُّ على التدفُّق الغزير، وهي نعمة عظيمة لمراعاة أحوالهم من عطشهم وحاجتهم للماء، وأيضًا لجموعهم الكثيرة التي لا يروي ظمأها إلا الماء الكثير. وحدوث الانفجار بعد الضرب بالعصى مباشرة يُعدُّ أيضًا نعمة عظيمة، فإنه تجلية واضحة لقدرة الله- سبحانه- مما مِن شأنه أن يزيدهم إيمانًا. كذلك، ففيه معنى الرحمة من الله والتكريم لنبيه موسى- عليه السلام- التي ذكرتها سابقًا.

هـ) قوله تعالى: ﴿ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ تدلُّ على أن فعل الضرب للحجر قد أسفر عن نبع اثنتي عشرة عينًا، وليس تقسيمه فيما بعد إلى اثنتي عشر جدولًا، وهذه في حدِّ ذاتها معجزة عظيمة لأن فيها مراعاة لأحوالهم الاجتماعية من انقسامهم لاثني عشر سبطًا. وانقسام قوم موسى إلى طوائف وقبائل- كما هو الحال عند غيرهم من شعوب الأرض- لا يُعدُّ خروجًا عن السنة الإلهية في هذا الكون، وإنما هو ذاته إحدى النعم التي امتنَّ بها- سبحانه- على عباده في قوله في الآية ١٣ من سورة الحجرات: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

و) قوله تعالى: ﴿ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ فيه تلميح بنعمة أخرى، وهي انقسام الماء المنفجر من الحجر إلى اثنتي عشر قسمًا مما يُضعِّف غزارته فلا يؤذي، بحيث لو كان عينًا واحدة لكانت غزارة مائها سببًا لهلاك من يريد الشرب، وربما أدت إلى إتلاف الأرض التي يمرُّ عليها الماء.

ز) قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ فيه إشعارٌ بنعمة الهداية التي جعلت كل واحدٍ منهم يهتدي إلى العين الخاصة به. ويتضح حجم هذه النعمة إذا علمنا أنهم كانوا يقدرون بمئات الآلاف، كما يذكره بعض المفسرين. إن معجزة انفجار الماء قد حدثت لهم بعد إنجائهم من فرعون، ومعلوم أن من شأن الجمع الغفير- وهو في حالة من اليأس والقنوط بسبب ما أَلَمَّ به من عطش- أن يتدافعوا ويتزاحموا، وربما يُفضي بهم إلى التقاتل. وإن قال قائلٌ بأنهم كانوا قبل انفجار الماء متوزِّعين إلى اثنتي عشرة مجموعة، بحيث لم يحتج

الناس إلى إرشاد وتوجيه للعين التي تخصُّه، فإننا نقول بأنه لو كان هذا الأمر فعلًا متحقق في قوم موسى لدلَّ أولًا على قدرات موسى- عليه السلام- الإدارية والتنظيمية في جعل هذه الجموع الغفيرة تتعايش مع بعضها دون تزاحم ولا تقاتل. وثانيًا، فهذا يدلُّ أيضًا على ما حباهم به- سبحانه- من محبة لبعضهم البعض، وتفهُّمٍ وتقبُّلٍ لأوامر موسى- عليه السلام-، ونزعٍ لحمية الجاهلية، وزرع بذرة الإيثار مكانها.

ح) قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ﴾ فيه تصريحٌ لهم بالاستفادة من الماء، حيث صار لهم نعمة عظيمة، وكان بالإمكان أن يجعله- سبحانه- نقمة عليهم، أو أن يكون ابتلاء لهم بحيث يشاهدون تدفُّقه وسيلانه وهم لا يستطيعون الوصول إليه أو لا يستسيغون طعمه لمرورة أو ملوحة به.

ط) قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا ﴾ نصيحة موجهة إليهم من الله مباشرة، أو على لسان موسى- عليه السلام-، والنصيحة تعدُّ من أَجَلِّ النعم، وخاصة إذا صدرت ممن له رسوخٌ في العلم، فكيف وهي صادرة من الله عزَّ وجلَّ أو من موسى عليه السلام. وأهمية هذه النعمة تظهر جلية إذا عرفنا أن النصيحة موجهة إليهم لينصلح حالهم بدلًا من أن يُتركوا في غيّهم حتى يكبُّهم الله في عذابه.

١٦) في قوله تعالى ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ في الآية ٦١ من سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ أسلوب تهكُّم من الله- سبحانه- ومن موسى- عليه السلام- بهم، حيث إنه خاطبهم بما يوحي ظاهره إلى حلٍّ واضحٍ وبسيط لمشكلتهم المُدَّعاة، وهو أن ينزلوا مصرًا، مع أن حقيقة ذلك الأمر مستحيل لأنهم في فترة التيه، ولن يستطيعوا الخروج من المنطقة المُحدَّدة لهم في فترة التيه، مما سيزيدهم تحسُّرًا، وهو ما عُبِّر عنه بـ ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾. وقد كان هذا الجواب لأن سؤالهم كان ظاهره فيه البراءة من كونهم يريدون تغيير نوع الطعام الذي يتناولونه، ولكنه- حقيقة- ينطوي على خبثٍ وتعنُّت، بدليل قولهم ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾، كعادتهم في

إضافة الربِّ إلى موسى وكأنه ليس بربهم، وأيضًا لقولهم ﴿ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾، ففيه نقضٌ لأوامر الله– سبحانه وتعالى– وكفرانٌ بنعمه لأنه اختصَّهم برزقٍ يأتيهم دون عناء وفي غاية اللذة ودونما انقطاع، وهم يعلمون ذلك.

١٧) يُحتَمل أن يكون قوله تعالى ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ في الآية: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (البقرة: ٦٧) صادرًا من القتلة أو ممَّن يعرفون أمرهم، وهم بردِّهم هذا يحاولون صرف نبي الله موسى– عليه السلام– عن القضية لئلا ينكشف أمر القتلة.

١٨) في قوله تعالى ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ في الآية: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ٧٣) إشارة إلى أن قصة إحياء قتيل بني إسرائيل بضربه بجزءٍ من البقرة المذبوحة فيها آيات كثيرة، منها:

أ) قدرة الله على إحياء الموتى، وهي تعتبر معجزة مؤيدة لموسى– عليه السلام–، حيث رأوا شاهدًا عليها. وفي هذا أيضًا إثبات على قدرة الله على إحياء الناس يوم القيامة.

ب) قدرة الله على إرجاع كافة الصفات للقتيل، والتي كان يتَّصف بها قبل قتله، بما في ذلك نبرة الصوت والذاكرة، فإنه استطاع أن يدلَّ على مَن قتله، وفي هذا دليلٌ على أمرين:

- ☑ عدم تحوُّل المرء بعد إحيائه يوم القيامة من جنس البشر إلى جنس آخر، سواءٌ من البشر (كتحوُّل الذكر إلى أنثى أو العكس) أو إلى جنس آخر كالحيوانات أو الطيور أو غيرها.
- ☑ بقاء ذاكرة الإنسان بعد موته، بحيث يستطيع تذكُّر ما كان يفعله في دنياه ليكون شاهدًا عليه يوم القيامة.

ج) أن الإحياء كان بقدرة الله ولم تكن البقرة سوى ابتلاء لهم، ولم يكن لها أيُّ أثرٍ في سريان الحياة للقتيل، بدليل أن القتيل قد عاد للحياة بالصفات الآدمية، ولم يحمل أية صفات حيوانية تختصُّ بها البقر.

د) أيضًا، ليس للضرب دورٌ في الإحياء، وإنما هو ابتلاء لبني إسرائيل لحملهم على فعل ما لا يُعقَل فعله.

هـ) أن الضرب كان بجزء من ميّت، وهذا يدلُّ على أن سريان الحياة في المقتول لم يكن بسبب ذلك الجزء من البقرة، وإنما بإرادة الله سبحانه.

و) أن رحمة الله بعباده قد تتجلى للعبد في صُوَرٍ قد لا يُدرِك فهم أسبابها؛ فإن قدر الله اقتضى أن يُقتَل ذلك الشخص في الفترة التي وُجِدت فيها البقرة بتلك الصفات النادرة، وفي المكان الذي وقعت فيه حادثة القتل، وجعل الله كشف الحقيقة بتلك الصورة إحياءً لنفوسٍ كان من الممكن أن تُزهَق ظلمًا، مما سيُعرِّض قاتليها إلى نار جهنم. وأيضًا، فإن القتلة ومَن شايعهم كانوا سيحق عليهم سخط الله. ولكن، في انتهاء القصة بتلك الصورة حقنٌ لدمائهم، وإحياءٌ لهم بحيث يستطيعوا أن يؤوبوا إلى ربهم ويتوبوا إليه مما اقترفوه.

ز) ربما كانت هذه الواقعة سببًا لإغناء اليتيم صاحب البقرة- كما ذكره بعض المفسرين-، وهذا يدخلُ أيضًا في باب حكمة الله- سبحانه- في تدبير شؤون الخلق، إذ إننا قد نستعجل الأمور ولا ندرك ما يحدث حولنا، وقد يكون في علم الله أن ما يحدث حولنا- وإن لم نفهمه- هو في حقيقته لمصلحتنا، فلربما كانت حادثة القتل تلك وما تبعها من أحداث هي لهدف إغناء ذلك اليتيم.

ح) أن وقوع هذه الحادثة فيه إنقاذٌ لحياة الكثيرين ممن شاهدوا تلك الواقعة أو سمعوا بها، سواءٌ أكانوا من أمة موسى- عليه السلام- أو من الأمم الأخرى؛ فإن مَن يسمع القصة ويتدبَّر الحكم العظيمة من ورائها ليزداد إيمانًا بالله ورسوخًا في دينه، مما يعني ابتعاده عن نار جهنم.

ط) في هذه الواقعة تعليم لنا بأن الكائنات التي خلقها الله- سبحانه- قد تكون خُلِقت لحكمة لا تصل إلى فهمها عقولنا القاصرة، وقد نتصوَّر أن تلك المخلوقات على درجة من الحقارة ولا ندرك الحكم العظيمة من وجودها. وبقرة موسى- عليه السلام- كانت سببًا- بإذن الله ومشيئته- في إنقاذ الأرواح وكشف خبايا النفوس وزرع بذور الإيمان وصرف الناس عن نار جهنم.

ي) في القصة دعوة إلى العلم، وتبيانٌ إلى أنه لا يُهتدى إلى العلم الحقيقي وأسرار هذا الكون إلا بالارتباط بالله- سبحانه-؛ فالله- سبحانه وتعالى- يملك العلم المطلق، ولذا زال ما قد يقع في النفس من ريبة وحيرة من خلال العلم الذي تلقيناه من المحاورة التي دارت بين

بني إسرائيل وموسى- عليه السلام-، وفي هذا أيضًا تأكيدٌ على أهمية أسلوب المحاورة في استيضاح الأمور، وفي تبيان إيضاح حكمة الله في هذا الخلق، والأسرار التي أودعها فيه.

ك) في القصة وأحداثها لفتُ نظرٍ إلى ما ينبغي أن يقوم به القاضي عند الفصل في القضايا؛ فعليه أن لا يعتدَّ فقط بالأقوال وبظواهر الأحداث، وإنما عليه أن يلجأ إلى أساليب غير مألوفة، والتي قد يصعب على الجناة توقُّعها وأخذ الحيطة لستر جرائمهم فيما لو تم اتباعها.

ل) أن الاستكانة والذلة قد تكون أحيانًا مقبولة (مثل تذليل البقر للحرث، ففيه منفعة ظاهرة ومقبولة) ولكن عدم الرضا بالذل والهوان قد يُنتِج أمورًا أهم، مثل ما حكت القصة عن صفات البقرة التي ذُبحت أنها {لا ذلول ... تثير...}، ولكنها كانت سببًا في حقنها للدماء وكشفها للجرائم وإغنائها لأصحاب البقرة.

١٩) قال الله في آخر الآية ٩٥ من سورة البقرة: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ولم يقل: "والله عليمٌ بهم" للفوائد التالية:

أ) لأن التعميم يفيد مطلق العلم لجميع مَن ظُلِم ولجميع الظالمين. أما "عليم" بهم فهو علم بفئة معينة من الناس، وهذا النوع من العلم قد يتأتى للبشر، فقد يكون بمقدور مَن طبَّق الصفات الواردة في الآية على الناس أن يستجلي أشخاصًا بعينهم.

ب) أن قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ فيه تهديدٌ من الله بمعاقبة الظالمين، وهو يُشعِر بقبح الظلم بعكس القول "عليمٌ بهم" فهو يوحي إلى معرفةٍ بأشخاص.

ج) أن العلم بالظالمين يحتاج إلى علم مطلق وإرادة مطلقة وحكمة مطلقة لتستطيع تصنيف أجناس البشر وتحديد فئة الظالمين من غيرهم، وهذا لا يتأتى لحساسيته وعظيم متطلباته إلا لله- سبحانه- الذي لديه العلم المطلق بأجناس الأفعال ودرجاتها وما يمكن أن يُصنَّف منها بأنه ظلم. كذلك، فإنه يحتاج إلى علم بنوايا القلوب وما إذا كانت تستحقُّ الوصف بالظلم أم لا.

د) لو قال الله: "والله عليمٌ بهم" لكان فيه نوعُ اهتمام بهم، مما يجعل لهم منزلة- وإن حقرت. أما قوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ففيه تجاهلٌ لهم وتحقيرٌ من شأنهم.

هذه مجرد خواطر، والله أعلم بالصواب.